تراث الإنسانية

العالم إرادة وتمثلا

لشوبنهور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. فؤاد زكريا

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

العالم إرادة وتمثلا

لشوبنهور

د . فؤاد زكريا





مهرجان القراءة للجميع ٩٤
مكتبة الأسرة
(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعي والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
أحمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان

العالم إرادة وتمثلا لشوبنهور

د . فؤاد زكريا

حياة شوبنهور :

إذا كان تفسير آراء كثير من الفلاسفة من خلال وقائع حياتهم يخفق فى أحيان غير قليلة ، فانه ينجح قطعا فى حالة شوبنهور ، لأن وقائع حياته تكشف نقاطا كثيرة فى مذهبه الفكرى ، أو على الأقل ترتبط بهذه النقاط ارتباطا واضحا · وهو فى ذلك على النقيض من أستاذه « ايمانويل كانت » ، الذى لم يكن النمط الرتيب الجاف الذى سارت عليه حياته يكشف عن اى شىء من آرائه ، ولا يمكن أن يرتبط باية طريقة خاصة فى التفكير · وستتضح هذه الحقيقة عن شوبنهور بجلاء خلال العرض الذى سنقدمه لحيـــاته ·

ولد أرتور شوبنهور Arthur Schopenhauer فى مدينة دانتسج فى ٢٢ فبراير عام ١٧٨٨ · وكان أبوه تاجرا ثريا ، يهتم بعض الاهتمام بالمسائل الثقافية ، غير أنه كان يتميز بنوع من الاستقلال فى الآراء وبجفاف

الطبع · أما أمه فكانت امرأة ذات مواهب عقلية رفيعة ، اشتهرت يوما ما بوصفها كاتبة قصصية ، وكان لها فيما بعد منتدى أدبى (صالون) فى فيمار · ولقد أبدى « أرتور » فى طفولته مقدرة عقلية ممتازة ، وعكف بعد ذلك على دراسة العلوم الانسانية والعلوم الطبيعيه ، ثم انتقل الى دراسة الفلسفة فى وقت متأخر نسبيا فى جامعتى جوتنجن وبرلين · وفى عام ١٨١٣ ألف أول كتبه ، وهو « الأصل الرباعى لمبدأ السبب الكافى » ، وهى رسالة حاز بها درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة يينا ، وعرض فيها نظرية فى المعرفة مبنية على رأى « كانت » فى مثالية الزمان والمكان والمقولات ·

وفى خلال اقامته فى درسدن ، فى المدة من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٨ ، أنتجت عبقريته الخلاقة كتابا فلسفيا ضمنه خلاصة تفكيره ، وكان سنة عندما انتهى منه ثلاثين عاما ، فكان مما يدعو الى الدهشة حقا أن يكتمل تفكيره ويبلغ كل هذا القدر من النضج وهو فى هذه السن المبكرة · هذا الكتاب ، الذى عبر عن مذهب شوبنهور أكمل تعبير ، هو « العالم ارادة وتمثلا » وعنوانه فى الألمانية Die Welt als Wille und Vorstellung
وانه لمن الأمور التى تسترعى النظر أن شوبنهور قد عاش واحدا وأربعين عاما بعد نشر هذا الكتاب ، لم يجد خلالها ما يدعوه الى الرجوع عن أفكاره الرئيسية التى تضمنها

كتابه هذا ، ومن المعروف أنه كان منذ حداثته يحتفظ بكراسة مذكرات يدون فيها ما يخطر له من الأفكار ، وهكذا كان الكتاب تعبيرا موضوعيا عن نظرته العامة الى الحياة ، تلك النظرة التى لم يتخل عنها الى النهاية ·

وفى سنة ١٨١٩ تولى شوبنهور منصبا للتدريس بجامعة برلين ، فبلغت به الجرأة أن حدد لمحاضراته نفس مواعيد محاضرات هيجل ، ولكنه بطبيعة الحال لم يستطع أن يجتذب المستمعين من فيلسوف ألمانيا الأكبر · وفى سنة ١٨٣١ اعتزل التدريس ، ثم اعتكف فى « فرانكفورت عامين » ، حيث عاش حياة منعزلة ، موحشة ، بلا أصدقاء سوى كلب أطلق عليه اسم « آتما » (وهى « النفس الكلية » عند الهنود) · وكان سبب اعتكافه هذا واضحا فقد أخفق تماما فى التدريس ، كما أن كتابه الرئيسى لم يلق أى نجاح ، فى الوقت الذى كان يرى فيه هيجل وشلنج وفشته ، الذين كانوا فى رأيه أقرب الى الدجل منهم الى الفلسفة الصحيحة ، يرفعون الى مصاف العباقرة ، ويلقون أعظم النجاح فى جميع الأوساط · وظل شوبنهور يعيش هذه الحياة الموحشة المعتمة ، مع تاليف كتب أخرى أقل أهمية ، حتى مات عام ١٨٦٠ ، ولكن الشهرة كانت قد بدأت تهبط عليه فى العقد الأخير من حياته ، وخاصة عندما ألف « يوليوس فراونشتت » « Julius Frauenstädt » كتابه « رسائل عن فلسفة شوبنهور « Briefe über die

« Schopenhauersche Philosophie ، ولكن كان واضحا أن الشهرة قد أتت بعد فوات الأوان ، اذ لم تفلح في اضفاء أي قدر من البهجة على حياته الكئيبة .

مؤلفات شوبنهور :

بدأ شوبنهور حياته التأليفية ، كما قلنا ، بكتابه « الاصل الرباعي لمبدأ السبب الكافي » « Über die Vierfache Wurzel des Satzes vom zureichenden Grunde وهذا الكتاب يكون مدخلا ضروريا الى فهم كتابه الرئيسي الذي نحن بصدده ، وان يكن قد تأثر فيه بكانت أكثر مما ينبغي . وبعد عامين (أي في ١٨١٥) الف كتابا في نظرية الألوان ، بعنوان « في الابصار والألوان Über das Sehen und die Farben . ثم كتابه الرئيسي « العالم إرادة وتمثلا » في سنة ١٨١٩ . وفي فترة عزلته الأخيرة ألف عن « الارادة في الطبيعة » « Über das Willen in der Natur عام ١٨٣٦ ، وكتاب « المشكلتان الأساسيتان في الأخلاق « Die beide Grundprobleme der Ethik في عام ١٨٤١ ، وكذلك كتاب « تكملات واضافات Parerga und Paralipomena » عام ١٨٥١ .

على أن شوبنهور لم يكن قد اكتفى بالجزء الذي تحدثنا عنه من كتابه الرئيسي « العالم ارادة وتمثلا » . ففي

عام ١٨٤٤ ، أي بعد خمسة وعشرين عاما من ظهور الطبعة الأولى ، أخرجه في طبعة ثانية تتألف من مجلدين كان المجلد الأول منهما مماثلا تقريبا للطبعة الأولى ، أما المجلد الثاني فكان يتألف من خمسين فصلا تتضمن مناقشات تدور حول الأفكار الرئيسية التي تضمنها المجلد الأول . ولقد كان لهذا المجلد الثاني طابع موسوعي جامع ، يشهد بمدى نضوج تفكير شوبنهور وتعمقه ، بحيث أصبح المجلدان معا يكونان عملا من أعظم الأعمال الفلسفية على الاطلاق .

الأفكار الرئيسية في كتاب « العالم ارادة وتمثلا » :

قلنا أن الالمام بكتاب « الأصل الرباعي لمبدأ السبب الكافي » ضروري من أجل فهم كتاب شوبنهور الرئيسي الذي هو موضوعنا الآن ، اذ أن شوبنهور كثيرا ما يشير اليه في كتابه الكبير ، ولا سيما في المجلد الأول ، حيث ذكر صراحة أن هذا المجلد لا يفهم الا اذا اتخذ الكتاب الآخر مقدمة له . ففي كتاب « الأصل الرباعي » هذا يناقش شوبنهور نظرية المعرفة ، ولا سيما مشكلتها الرئيسية ، مشكلة الادراك الحسي . وهو يرى أننا عندما ندرك شيئا بحواسنا ، لا تنقل الينا الحواس سوى مواد بسيطة ، لا تكفي لكي نعرف شيئا بالمعنى الصحيح ، وانما تقوم ملكة الادراك لدينا ، وهي ملكة ذهنية ، بتكملة

ما يرد الينا من الحواس · وتكملتها هذه أساسية ، حتى أننا نستطيع أن نقول ان ادراكنا « عقلى » لا « حسى » ، وأن ذهننا هو الذى يكون صورة العالم الخارجى بما فيها من تنوع وثراء · فيم تنحصر فاعلية هذا الذهن ؟ وما هى العناصر التى يأتى بها من ذاته لكى يصبغ العالم بصورته الخاصة ؟ لقد سبق أن قال الفيلسوف الألمانى « كانت » ان هذه العناصر هى « المقولات » الاثنتا عشرة ، التى لا يعنينا هنا أن نعددها كلها · ولكن شوبنهور يختبر رأى « كانت » هذا بدقة ، فيستبعد احدى عشرة مقولة من هذه ، ليستبقى واحدة فقط ، يرى أنها هى الأساسية : تلك هى مقولة **العلية** · وهو يضيف اليها صورتى المكان والزمان ، وهما بدورهما ذاتيتان لا وجود لهما خارج الذهن ، أى أنهما ، كالعلية ، وظيفتان باطنتان لذهننا ، تصاغ فيهما كل تجربة ممكنة يدركها الانسان · فكل ما حولنا ، وما يخطر ببالنا ، وما يتراءى لنا بطريق مباشر أو غير مباشر ، وهو اما علة أو معلول ، وهو يحتل مكانا ويمر فى زمان : وعن طريق هذه الصور الثلاث ينظم ذهننا العالم الخارجى والعلاقات بين الأشياء فيه · وهذه المعانى الثلاثة ليست مستمدة من التجربة ، بل ان التجربة لا تكون ممكنة الا اذا صيغت فيها · فتلك الصور الثلاثة اذن « أولية » « A priori »

ويلخص شوبنهور تلك الصيغة التى تكون الأشياء

بموجبها معتمدة على الذهن ، ومرتبطة بعضها ببعض فى الاطار الذهنى ، بقوله ان الأشياء تخضع لمبدأ السبب الكافى · ولهذا المبدأ أربعة مظاهر (هى التى تكون « أصله الرباعى ») · أولها مظهر التغير : فهو يتخذ أولا مظهر قانون العلية الذى يتحكم فى تغير الظواهر ويربطها بعلاقة المعلول · وهو يتخذ ثانيا مظهرا منطقيا مجردا ، تكون فيه المقدمة المنطقية علة أو أساسا للنتيجة · وله مظهر ثالث هو الوجود فى المكان والزمان ، كما هى الحال فى قضايا الهندسة التى تؤدى فيها احدى العلاقات الى علاقة أخرى بالضرورة · وأخيرا يتخذ مظهرا نفسيا أو أخلاقيا فى الانسان ، حيث يؤدى الباعث المعين الى ظهور فعل معين · وهكذا فان مبدأ السبب الكافى يتناول الصورة التى « تتمثل » العالم عليها ، وهو يتعلق « بشكل » العالم كما يتبدى لنا ، أى بالطابع الذى يضفيه ذهننا عليه · ولكن لابد من أن يكون هناك ، من وراء هذا الشكل أو الطابع الذى يظهر عليه العالم لذهننا ، كيان باطن هو الذى أطلق عليه « كانت » اسم « الشىء فى ذاته » ، وهو الذى يمكننا أن نعده قلب الوجود الحقيقى ، تمييزا له من المظهر الذى يتبدى عليه هذا الوجود لادراكنا ·

واذا كنا قد توسعنا قليلا فى شرح آراء شوبنهور فى هذا الكتاب ، فذلك لأن هذه الآراء ترتبط مباشرة

بأفكاره الرئيسية فى كتاب « العالم ارادة وتمثلا » ، وتمهد الطريق لمنهجه الكامل الذى يفترضها مقدما ·

فهو يبدأ كتابه بالحديث عن العالم من حيث هو مظهر ، أعنى العالم من حيث هو موضوع لادراكنا ، عالم الأشياء ، وعالم الطبيعة · هذا العالم فى أساسه تمثل Vorstellung : أى أن الذات التى تدركه هى التى تجعله موضوعا لها ، ومن هنا فهو « تمثل » ، أى أننى أنا الذى أمثله لنفسى على نحو ما · ولقد أيدت أبحاث العلوم الطبيعية هذا الرأى ، اذ قالت بأن الألوان أو الأصوات ذاتية ، أى أنها ليست صفات فى الأشياء نفسها ، بل تضفيها الذات على الأشياء ، وأكده الفيلسوف الألمانى « كانت » ، حين جعل المكان والزمان صورا ذاتية ، وكذلك المقولات التى تفهم الذات من خلالها العالم الخارجى ، وان يكن شوبنهور قد اختلف مع « كانت » ، كما قلنا ، فى عدد المقولات وأهميتها النسبية ·

على أن هناك عنصرا أساسيا فى العالم لا يخضع لصفة « المظهرية » هذه ، أى لا يتبدى من خلال أشكال تخلعها عليه ذاتنا ، وانما يتبدى فى أصالته وعلى نحو مباشر · فاذا كان جسم الانسان يخضع لشروط الزمان والمكان والعلية ، فاننا نشعر أيضا بأن لنا كيانا آخر لا يخضع لهذه الشروط ، ولا يتغير بتغير الزمان أو المكان ،

ويستطيع التغلب على قيود العلية ، أو البدء فى أفعال جديدة دون الخضوع لهذه القيود · ذلك الكيان هو « الارادة » · فالجسم ذاته يعد ، بالنسبة الى هذه الارادة ، « مظهرا » لها ، تدفعه حيث شاءت ، وتتحكم فيه بشروطها الخاصة · ويمد شوبنهور نظرته هذه الى الطبيعة بأسرها : فمن الممكن أن نتصور الكون كله على مثال الانسان ، بحيث يكون المجرى المادى للظواهر الطبيعية مماثلا لجسم الانسان ، بينما يوجد من وراء هذا المجرى المادى كيان آخر للطبيعة تتمثل فيه ماهيتها الحقيقية · ويكون هو « الارادة » المنبثة فى كل أرجاء الكون ، والقوة المتحكمة فيه · فكل ما نعرفه فى الطبيعة من قوى وطاقات تنتج أفعالا وتأثيرات ، انما هى أشكال تتجلى فيها الارادة الشاملة فى العالم · وهكذا يستمد شوبنهور من فكرة « القوة » أو « الطاقة » التى تلعب دورا هاما فى العلوم الفيزيائية ، تأييدا لرأيه القائل ان الماهية الأصلية للكون ارادة تتحكم فى ظواهره المادية مثلما تتحكم الارادة البشرية فى ظواهر الجسم الانسانى · ولا يقتصر الأمر على الظواهر الفيزيائية وحدها ، بل ان هناك ارادة واحدة من وراء كثرة الظواهر الفسيولوجية والنفسية · وهكذا فبينما تقوم علوم الفيزياء والبيولوجيا وعلم النفس بملاحظة الظواهر الكثيرة موضوعيا ، وتحديد قوانينها فى المكان والزمان ، وتعيين ما هو علة وما هو معلول منها ، فان هناك مبحثا آخر ، هو « الميتافيزيقا » ، مهمته ان ينفذ من وراء هذه

الكثرة الموضوعية الى الكيان الأصلى الذى يتحكم فيها ، وهو « ارادة » العالم .

فاذا كانت ماهية الانسان وماهية الكون الأصلية هى الارادة ، فلا جدال فى أن الصورة التى سترسم لحياة الانسان ولمجرى الكون ستكون قاتمة الى حد بعيد . ذلك لأن الارادة ليست مبدأ عاقلا منظما ، يستهدف غايات محددة ويسير نحو تحقيقها تبعا لخطة مرسومة ، وانما هى أساسا اندفاع أعمى ، وقوة طاغية لا ضابط لها ولا نظام ، أما ذلك الذى نطلق عليه اسم العقل ، أو الروح ، أو الذكاء ، فما هو الا أداة فى يد هذه القوة الغاشمة تتحكم فيها كما تشاء . وطالما أنها هى المبدأ الأساسى فى الكون ، فلابد أن يكون تاريخ البشرية كله سجلا للأعمال المتخبطة لهذه الارادة ، مثلما أن التاريخ الفردى حافل بالخداع ، خلو من المعنى ، ليس له من نهاية سوى الموت المحتوم . فالعالم فى أساسه لا معقول ، ومضاد لكل منطق .

وليس من الصعب أن يدرك المرء فى هذه الصورة المعتمة التى رسمها شوبنهور للعالم ، وفى التشاؤم الذى أصبح طابعا مميزا لفلسفته ، صدى للاخفاق الذى لقيه فى حياته ، ولعجزه عن تحقيق رغباته واضطراره الى اعتزال عالم الناس . ولكنه فى الوقت نفسه يمكن أن يعد مظهرا

من مظاهر أمانته العقلية ونزاهته الأخلاقية : اذ لم يستطع أن يعيش طويلا مع الأكاذيب ، أو أن يوفق بين ضميره وبين الخداع الذى واجهه فى الحياة ، فآثر أن يبتعد عن المجتمع ويعلن عداءه للحياة بدلا من أن ينافقها ويتعايش معها من وراء ضميره . ولقد تمكن خلال هذه النظرة التشاؤمية ، المترفعة عن واقع الناس ، من أن يتعمق فى طبائع البشر وهو ينظر اليها عن بعد ، وأن يكتسب دقة نادرة فى ملاحظة النفس البشرية ونواحى الضعف فيها ، فأثبت فى كتاباته أنه عالم نفسى من الطراز الأول ، وذلك فى مجال الفهم العملى لطبيعة الانسان ، لا فى المجال النظرى بطبيعة الحال . ونجم عن ذلك أن اكتسبت فلسفته طابعا شخصيا الى حد بعيد ، بحيث يشعر قارئه على التو بالصلة الوثيقة بين الفكر والمفكر ، على عكس الحال فى مذهب خصمه « هيجل » ، الذى حرص على أن يكون مذهبه لاشخصيا ، وعلى أن ينسب اليه حقيقة موضوعية تعلو على تغيرات الزمان والمكان . واذا كان مذهب شوبنهور قد افتقر الى مثل هذه الحقيقة الموضوعية ، فلا جدال فى أنه قد عوضها بحقيقة أخرى ذاتية نحس فيها بحرارة الشخصية الانسانية التى خلقت هذه الحقيقة ، وبصدقها واخلاصها الكامل .

ولكن هناك ، مع كل هذا الطابع التشاؤمى وكل هذه اللامعقولية التى يتسم بها العالم ، طريقا الى الخلاص :

هذا الطريق له مرحلتان : مرحلة مؤقتة ، ومرحلة نهائية كاملة · والمرحلتان معا تتميزان بمحاولة قمع أصل الشر في العالم ، وهو الارادة ·

أما المرحلة المؤقتة ، فهى مرحلة الفن · ففى الفن يمارس الانسان نشاطا خالصا ، لا يؤثر فيه نزوع الارادة أو طموحها ، ويتحرر من كل الأغراض والأهداف المميزة للارادة · فأنت حين تمارس نشاطا فنيا ، لا تفعل ذلك لأن لارادتك هدفا محددا تريد بلوغه ، بل ان هذا النشاط خالص من كل غرض ، وما هو الا تأمل لأنماط وصور خالصة · وهو يعلو على الصفات الجزئية فى الأشياء ، ويتأملها فى صورتها الكلية الخالصة : ففى العمارة نرى فاعلية القوة خالصة ، وفى الفنون التشكيلية نتمثل الشكل الانسانى والحيوانى فى صفاته الحيوية الخالصة ، كما أن الشعر يكشف لنا عن طباع الانسان ومشاعره بوجه عام ، أما الموسيقى فهى أعلى الفنون جميعا ، اذ أنها تكشف عن ارادة العالم ذاتها فى عالم الايقاع والأنغام الذى تفتح آفاقه لنا ; فهى فن الصورة الخالصة ، لا الصورة المكانية أو العينية الجزئية ، وهى لا تكشف لنا عن هذه العاطفة أو تلك ، وانما عن العاطفة بما هى كذلك · فالعالم ، كما يقول « شوبنهور » ، موسيقى متجسدة ، مثلما أنه ارادة متجسدة ·

وأما المرحلة النهائية للخلاص من قبضة الارادة ، فهى مرحلة الأخلاق · ويتم الخلاص الكامل ، فى مجال الأخلاق ، بادراك الانسان أن الموجودات كلها تكون وجودا واحدا ، أى بالقضاء على فكرة الكثرة ، أو الفردية · ذلك لأن شعور كل شخص بفرديته هو مبعث الأنانية ، وبالتالى مصدر الشرور جميعا ، اذ يتصادم الأفراد بعضهم مع البعض ، فتنجم الرذائل الأخلاقية كلها ، من كراهية وحسد ورغبة فى القضاء على الخصم ، عن هذا التصادم · غير أن هذه الكثرة ليست الا خداعة ، وحين ينكشف للانسان هذا الخداع ، ويرفع عنه وهم الكثرة ، يصل الى الخلاص الحقيقى ، اذ يدرك الوحدة الكامنة من وراء الكثرة الظاهرة ، ويسود العطف أو الشفقة ، وهو الشعور الذى يربط بين الأفراد بعد أن كانت الأنانية تفرق بينهم · وأفضل عقيدة دينية تمثلت فيها فكرة الوحدة هذه ، هى عقيدة الزهد عند الهنود : ففيها اماتة تامة للارادة ، التى هى أساس الشر كله ، وفيها الخلاص الكامل من ارادة الحياة ، وذلك فى حالة « النرفانا » ، أى محو الفردية تماما فى حالة من الوحدة الكاملة مع الوجود فى مجموعه ·

تلك ، باختصار شديد هى الأقسام الأربعة الرئيسية التى ينقسم اليها كتاب شوبنهور « العالم ارادة وتمثلا » · ففى القسم الأول يتناول العالم من حيث هو تمثل ، أى ظاهرة فى نظر الذات ، وفى القسم الثانى يتحدث عن

العالم بوصفه ارادة ، ويناقش موضوع الارادة من حيث هي مبدأ كلي أو « شيء في ذاته » ، من وراء كل مظهر ، ولقد كان « شوبنهور » في هذين القسمين فيلسوفا محترفا الى حد ما ، ومن هنا يمكن القول بوجه عام ، ان تأثيره الأكبر في الفكر والأدب العالميين لم ينتج عنهما ، وانما نتج عن القسمين الثالث والرابع ، اللذين عالج فيهما العالم من حيث هو ارادة وتمثل أيضا ، ولكن من زاوية جديدة ، هي زاوية الذاتية · فهنا كان « شوبنهور » ينطق لغة جديدة تتغلغل بجذورها في أعماق النفس البشرية ، وتفيض بالتقدير الكامل لموقف الانسان في العالم ، وهنا ، لأول مرة ، نجد كتابا ضخما يعرض مذهبا فلسفيا كاملا ، يحدثنا فصولا طويلة عميقة عن العمارة والتصوير والشعر والموسيقى ، ويجعل لهذه الفنون دورا أساسيا في فلسفته · وهكذا نجد آراءه في الارادة من حيث هي مبدأ للعالم تعود الى الظهور في فلسفة نيتشه وبرجسون ووليام جيمس ، ولكن بصورة مختلفة في كل حالة ، أما في ميدان الأدب والفن فقد كان تأثيره أعمق ، اذ أن عددا كبيرا من الأدباء ، وعلى رأسهم هاردي ، وتوماس مان ، قد اعترفوا صراحة بفضل فلسفة شوبنهور عليهم ، كما أن شوبنهور كان هو الفيلسوف الأول ، والأهم ، الذي تأثر فاجنر بأفكاره ، وكان اكتشاف فلسفته بمثابة فاتحة عهد جديد في تفكير فاجنر النظري الذي تكون منه أساس بنائه الفني · ويمكن القول ، بوجه عام ، ان ازدياد قوة

الاتجاه الشخصي في الفلسفة والفكر عامة ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، هو ظاهرة ترجع ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، الى تأثير شوبنهور ·

نصوص من كتاب « العالم ارادة وتمثلا » لشوبنهور

أولا : العالم تمثلا

« العالم تمثلي : تلك حقيقة تصح على كل كائن حي عارف ، وان يكن الانسان وحده هو الذي يستطيع أن يكون لديه وعي فكري مجرد بها · ولو فعل ذلك حقا ، لأشرق عليه نور الفلسفة ، وعندئذ يصبح من الواضح المؤكد له أنه لا يعرف شمسا ولا أرضا ، وانما عينا ترى شمسا ويدا تلمس أرضا ، وأن العالم المحيط به ليس هناك الا بوصفه تمثلا ، أي بوصفه منسوبا الى شيء آخر ، هو ذلك الذي يتمثل ، وهو أنا · ولو كان ثمة حقيقة يمكن التعبير عنها أوليا ، فهذه هي ، اذ أن هذه الحقيقة تعبير عن صورة كل تجربة ممكنة يتسنى تصورها ، وهي صورة أعم من كل الصور الأخرى · أي من الزمان والمكان والعلية ، اذ أن هذه كلها تفترضها مقدما · وعلى حين أن كلا من هذه الصور ، التي ذكرنا أنها أحوال خاصة لمبدأ السبب الكافي ، لا يصح الا على فئة معينة من التمثلات ، فان

التقسيم الى موضوع وذات هو الصورة المشتركة بين هذه الفئات جميعا ، وهذه الصورة وحدها هي التى تتيح كل تمثل .. وتجعله ممكنا . واذن فليس ثمة حقيقة أكثر يقينا .. من هذه الحقيقة ، وأعنى بها أن كل شيء يوجد للمعرفة ، أى كل هذا العالم ، لا يكون موضوعا الا بالنسبة الى ذات ولا ادراكا الا بالنسبة الى مدرك ، أى بالاختصار ، لابد أن يكون تمثلا .. فكل شيء ينتمى أو يمكن أن ينتمى الى العالم يرتبط حتما بهذا الشرط : شرط التوقف على الذات ، ولا يوجد الا من أجل الذات . « فالعالم تمثل » . (الكتاب الأول ــ القسم الأول) .

ثانيا : العالم ارادة :

يشرح شوبنهور طريقة الوصول الى فكرة الارادة من وراء العالم الظاهرى فيقول : « سيظل هناك دائما (من وراء البحث فى العلل) باق لا يرد ، ومحتوى للظواهر لا يمكن ارجاعه الى صورته ، ولا يمكن تفسيره من خلال شيء آخر وفقا لمبدأ السبب الكافى . اذ أن فى كل ما فى الطبيعة شيئا لا يمكن وضع أساس له ، ولا تقديم تفسير له ، ولا البحث عن سبب آخر له . ذلك هو الطريقة الخاصة لفعل الشيء ، أى بعبارة أخرى طريقة وجوده ذاتها ، وجوهره أو ماهيته الحقيقية .. فما يكون فى الانسان شخصيته غير القابلة للتفسير ، وما يفترض مقدما فى كل

تفسير لأفعاله من خلال الدوافع ، انما هو بالنسبة الى كل جسم غير عضوى طبيعته الأساسية ، وطريقته فى الفعل ، على حين أنه هو ذاته ، من جهة أخرى ، لا يتحدد بأى شيء خارجه ، وبالتالى لا يمكن تفسيره » .

(الكتاب الثانى ــ القسم ٢٤) .

« ان الميكانيكا ، والطبيعة ، والكيمياء ، تلقننا القواعد والقوانين التى تسلك وفقا لها قوى الصلابة والجاذبية والجمود والسيولة والتماسك والمرونة والحرارة والضوء والتجاذب الانتقائى والمغناطيسية والكهرباء ، وما الى ذلك » أى بعبارة أخرى القانون والقاعدة التى تلاحظ على هذه القوى فيما يتعلق بمحولها المكان والزمان فى كل حالة . ولكن مهما فعلنا ، فستظل القوى ذاتها كيفيات غامضة : اذ أن الشيء فى ذاته هو الذى يكشف بظهوره عن هذه الظواهر .. » .

(نفس القسم السابق)

ثم يحدد شوبنهور بعد ذلك ماهية ذلك « الشيء فى ذاته » ، أو القوة التى تكمن من وراء قوانين العلم وظواهره هذه ، بأنها هى الارادة ، ويصف الارادة بأنها : « هى القوة التى تنبت النبات .. وتوجه المغناطيس الى القطب الشمالى .. بل هى القوة التى توجد فى الجاذبية ذاتها ،

والتى يظهر أثرها فى كل مادة بوضوح ، فتجذب الأحجار الى الأرض والأرض الى الشمس . كل هذه .. لا تختلف الا فى ظاهرها ، أما طبيعتها الباطنية فواحدة .. فهى الماهية الباطنية ، والقلب ، بالنسبة الى كل شىء جزئى والى الكل أيضا . وهى تظهر فى كل قوة عمياء للطبيعة ، وكذلك فى سلوك الانسان الارادى ، والفرق الهائل بين الاثنتين لا يتعلق الا بدرجة ظهورها ، لا بطبيعتها الباطنة » .

(الكتاب الثانى ـ القسم ٢١) .

ويشرح شوبنهور كيف أن تسمية هذا الشىء فى ذاته ، أو هذه القوة الباطنة ، باسم الارادة ، انما هى من قبيل تسمية الظاهرة العامة باسم واحد من أهم أمثلتها ، وهو الارادة البشرية ، فيقول :

« لهذا سأطلق على الجنس اسم أهم أنواعه ، وهو النوع الذى تكون لدينا أوثق معرفة به ، ويؤدى الى معرفة غير مباشرة بكل شىء آخر . أما من لم يستطع فهم اللفظ بالمعنى الواسع المطلوب ، فسيظل دائما على خطأ : اذ لن يفهم من كلمة « الارادة » الا ذلك النوع الذى اقتصر اللفظ حتى الآن على الدلالة عليه ، أى الارادة التى توجهها المعرفة بدقة حسب دوافع ، بل حسب دوافع مجردة ، وتسير بارشاد ملكة العقل . هذا ، كما قلنا ، هو أوضح مظاهر

الارادة وأكثرها تميزا . ولكن علينا الآن أن نفصل فى أذهاننا الطبيعة الباطنة لهذه الظاهرة ، والمعروفة لنا مباشرة ، وننقلها الى كل الظواهر الأضعف والأقل تميزا للماهية ذاتها ، وبهذا نحقق الامتداد المطلوب لتصور الارادة .. ولقد كان تصور الارادة حتى الآن يدرج تحت تصور القوة ، أما أنا فأفعل العكس ، وأرى أن كل قوة فى الطبيعة ينبغى أن تتصور على أنها ارادة . ومن الواجب ألا نرى فى هذا مجرد اختلاف فى الألفاظ ، أو مسألة لا أهمية لها ، اذ أن لهذا الأمر ـ على عكس ذلك ـ أهمية قصوى . فمن وراء تصور القوة ، كما هى الحال فى كل تصور آخر ، تكمن معرفة العالم الموضوعى من خلال الادراك الحسى ، أى بعبارة أخرى الظاهرة والتمثل الذى يستمد منه التصور . فهذا اللفظ مستخلص بالتجريد من المجال الذى يسوده العلة والمعلول .. أما تصور الارادة فهو الوحيد ، من بين سائر التصورات الممكنة ، الذى لا يرجع أصله الى الظاهرة ، ولا الى مجرد تمثل الادراك ، بل يأتى من الباطن ، ويستمد من أقرب وعى مباشر لكل شخص .. واذن فنحن اذا أرجعنا تصور القوة الى تصور الارادة ، انما نكون قد أرجعنا شيئا مجهولا تماما الى شىء معروف لنا حق المعرفة ، بل الى الشىء الوحيد الذى نعرفه معرفة مباشرة كاملة » .

(الكتاب الثانى ـ القسم ٢٢) .

ثالثا : ماهية الفن :

عند تحديد شوبنهور لماهية الفن ، يتساءل أولا : « أى نوع من المعرفة ذلك الذى يتعلق بما هو مستمر فى وجوده خارج جميع العلاقات ومستقلا عنها ، بما هو وحده الأساسى فى العالم ، والمحتوى الحقيقى لظواهره ، وما لا يسرى عليه التغير ، وبالتالى ما يعرف بحقيقة لا يؤثر فيها الزمان ، أى بالاختصار ، ذلك الذى يتعلق « بالمثل » التى هى الموضوعية المباشرة المطابقة للشىء فى ذاته وللارادة ؟ انه الفن ، نتاج العبقرية · وفى الفن تتكرر المثل الأزلية المدركة عن طريق التأمل الخالص ، أى ذلك العنصر الأساسى الباقى فى كل ظواهر العالم · وهو يكون نحتا أو تصويرا أو شعرا أو موسيقى تبعا للمادة التى تتكرر فيها هذه المثل · ومصدره الوحيد هو معرفة المثل ، وهدفه الوحيد هو نقل هذه المعرفة الى الآخرين · واننا لنجد أن العلم ، الذى يساير على الدوام تيارا قلقا غير مستقل ، هو تيار الأشكال الرباعية للأسباب أو الأسس والنتائج ، يكتشف طريقا جديدا بعد كل غاية يبلغها ، ولا يمكنه أن يهتدى أبدا الى هدف نهائى او يصل الى الرضاء التام ، تماما كما لا يمكننا بالجرى أن نصل الى النقطة التى تتلامس فيها السحب مع الأفق · أما الفن فهو على الدوام بالغ هدفه · ذلك لأنه يلتقط موضوع تأمله من مجرى التيار الذى يسير فيه العالم ، ويستبقيه أمامه منعزلا ·

وبذلك يصبح هذا الشىء الخاص ، الذى كان داخل ذلك التيار جزءا متناهيا فى الصغر ، ممثلا للكل فى نظر الفن ، ومعادلا للكثرة اللامتناهيـة فى المكان والزمان · وهكذا يتوقف الفن أمام هذا الشىء الخاص ، ويوقف عجلة الزمان ، وتختفى العلاقات بالنسبة اليه ، ولا يعود له من موضوع الا ما هو أساسى ، أى « المثال » ، وبذلك يمكننا تعريف الفن على وجه الدقة بأنه طريقة النظر الى الأمور على نحو مستقل عن مبدأ السبب الكافى ، وذلك مقابل طريقة النظر اليها على نحو يراعى فيه هذا المبدأ بدقة ، وهى طريقة العلم والتجربة » ·

(الكتاب الثالث ــ القسم ٣٦)

فاذا تساءل القارىء عن معنى طريقة النظر الى الامور على نحـو مستقل عن مبـدأ السبب الكافى هذه ، فان شوبنهور يوضحها بأنها طريقة : « لا نعود (فيها) ننظر فى الأشياء الى الأين والمتى و « لم » و « الى أين » ، وانما ننظر الى « ما هى عليه » فقط · ولا نـدع التفكير المجرد وتصورات العقل تستحوذ على ذهننا ، بل نكرس كل قوة العقل للادراك ، ونستغرق فيه تماما ، وندع وعينا بأسره يمتلىء بالتأمل الهـادىء للشىء الطبيعى الماثل بالفعل أمامه ، سواء أكان ذلك الشىء منظرا طبيعيا ، أم شجرة ، أم صخرة أم جلمودا أم بناء أم أى شىء آخر · فهنا « نفقد »

أنفسنا تماما فى هذا الموضوع ، اذا شئنا أن نستخدم هذا التعبير المثقل بالمعانى ، اى أننا ، بعبارة أخرى ، ننسى فرديتنا وارادتنا ، ولا نظل نوجد الا بوصفنا ذاتا خالصة ، ومرآة صافية للشىء ، بحيث يبدو كأن الشىء يوجد وحده دون أن يدركه أحد ، فلا يعود فى وسعنا التمييز بين المدرك والمدرك ، وانما يصبح الاثنان واحدا ، ما دام الوعى بأكمله يمتلىء ويشغل بصورة ادراكية واحدة • فاذا أصبح الموضوع مستقلا الى هذا الحد عن كل علاقة له بشىء خارج عنه ، واذا أصبحت الذات مستقلة الى هذا الحد عن كل علاقة لها بالارادة ، فان ما يعرف عندئذ لا يعود هو الشىء الفردى بما هو كذلك ، وانما هو « المثال » ، والصورة الأزلية ، والموضوعية المباشرة للارادة فى هذه المرحلة • وبالمثل فان الشخص الذى يكون لديه ادراك كهذا ، لا يعود فى الوقت ذاته فردا ، اذ أن الفرد قد فقد ذاته فى هذا الادراك ، وانما يصبح « ذاتا عارفة » ، خالصة بلا ارادة ، وبلا ألم ، وبلا زمان » •

(الكتاب الثالث ـ القسم ٣٤)

واذا كان شوبنهور فى النص السابق قد حدد ماهية الفن بوجه عام ، فانه يجعل للفن الموسيقى مكانة خاصة ، ويوضح طبيعته فى نصوص كثيرة من أهمها :

« ••• ان فى امكاننا أن ننظر الى عالم الظواهر

أو الطبيعة ، والى الموسيقى ، على أنهما تعبيران مختلفان عن شىء واحد •• فالموسيقى ، اذا ما نظر اليها على أنها تعبير عن العالم ، تغدو ـ بأكمل معانى الكلمة ـ لغة عالمية ترتبط بالتصورات الشاملة ، مثلما ترتبط هذه بالأشياء الجزئية • ومع ذلك فان طابع الشمول فيها ليس ذلك الشمول الفارغ الناتج عن التجريد ، وانما هو من نوع مختلف تماما : فهو يقترن بتمييز دقيق لا لبس فيه ولا غموض • والموسيقى فى هذا أشبه بالأشكال الهندسية والأعداد ، التى هى صور كلية لجميع الموضوعات الممكنة للتجربة ، تنطبق على هذه الموضوعات جميعا بطريقة أولية ، ولكنها مع ذلك ليست مجردة ، بل هى قابلة للادراك الحسى ، وهى محددة بكل دقة • وهكذا فان كل جهد تبذله الارادة ، وكل ثوراتها وتجلياتها ، وكل الحوادث التى تقع داخل الانسان ذاته ، والتى تدرجها ملكته العاقلة ضمن تلك الفئة الواسعة السلبية ، فئة المشاعر ، يمكن أن يعبر عنها ذلك العدد اللامتناهى من الألحان الممكنة ، ولكن ذلك التعبير يكون له دائما شمول الصورة الخالصة ، دون أية مادة ، ويكون دائما متعلقا بما يوجد فى ذاته ، لا بالمظهر ، أى بأعمق أغوار النفس من غير الجسم • هذه العلاقة الوثيقة للموسيقى بالطبيعة الحقة للأشياء جميعا تفسر لنا أيضا حقيقة هامة ، هى أنه عندما تعزف موسيقى ملائمة لأى منظر أو فعل أو حادث أو بيئة ، فانها تبدو وكأنها تكشف لنا عن أدق معانيه خفاء ، وتظهر وكأنها أفضل شرح وأدق

تمييز له . وفضلا عن ذلك ، فانه يبدو للانسان الذى ترك سيمفونية تتغلغل فى نفسه بلا قيود ، أنه قد رأى كل الحوادث الممكنة فى الحياة وفى العالم تمر أمامه داخل ذاته . ومع ذلك ، فلو أمعن التفكير فى الأمر لما وجد أى تشابه بين قطعة الموسيقى وبين الأشياء التى مرت بذهنه . ذلك لأن الموسيقى كما قلنا تختلف عن كل الفنون الأخرى فى أنها لا تصور الظاهرة ، أو بتعبير أدق ، لا تصور موضوعية الارادة المطابقة ، وانما هى تصوير مباشر للارادة ذاتها ، وبالتالى فهى تعبر عن الماهية الميتافيزيقية لكل ما يوجد فى عالم الأشياء ، وعن الشىء فى ذاته بالنسبة الى كل ظاهرة . وهكذا يمكننا أن نسمى العالم موسيقى متجسدة مثلما يمكننا أن نسميه إرادة متجسدة » .

(الكتاب الثالث ـ القسم ٥٢) .

رابعا : الطريق الى الخلاص :

فى مجموعة النصوص التى أدرجت تحت الفئة « ثالثا » ، حدد شوبنهور ماهية الفن ، وأوضح فى الوقت ذاته طريقا مؤقتا الى خلاص النفس من قيود الارادة . وهو فى النص الآتى يوضح الطريق النهائى لخلاص الانسان ، وهو اماتة ارادة الحياة ، والتخلص من مبدأ الفردية فى ذاته :

« لا يوجد الا خطأ فطرى واحد ، هو الفكرة القائلة اننا نوجد لنكون سعداء .. فما نحن الا ارادة للحياة ، ونحن لا نفهم من السعادة الا أنها الارضاء المتعاقب لارادتنا .

وطالما ظللنا واقعين فى هذا الخطأ الفطرى ، الذى يزداد رسوخا فينا بفضل المعتقدات التفاؤلية ، فان العالم يبدو لنا حافلا بالمتناقضات . ذلك لأننا نشعر حتما فى كل خطوة ، وفى كل الأشياء كبيرها وصغيرها ، بأن العالم والحياة لم ينظما أبدا بقصد ضمان حياة سعيدة لنا .. وفضلا عن ذلك ، فان كل يوم مر فى حياتنا حتى الآن قد علمنا أنه حتى فى الحالات التى تتحقق فيها أفراح ولذات ، تكون هذه فى ذاتها خداعة ، ولا تؤدى الى النتائج التى تعدنا بها ، ولا ترضى قلوبنا ، فضلا عن أن الحصول عليها يقترن على الأقل بالمرارة التى يبعثها ما يرتبط بها أو ما ينبثق عنها من الآلام والمنغصات . أما الآلام والأحزان فتثبت أنها حقيقية الى أبعد حد ، وكثيرا ما تتجاوز كل ما نتوقعه . وهكذا فان كل ما فى الحياة قد رسم بحيث يؤدى بنا الى الرجوع عن هذا الخطأ الفطرى ، والى اقناعنا بأن القصد من وجودنا هو ألا نكون سعداء .. أما من تخلص بطريقة ما من ذلك الخطأ الأولى الكامن فينا ، ومن ذلك التزييف الأول فى وجودنا ، فسرعان ما يرى كل شىء فى ضوء مخالف ، ويجد أن هذا العالم متفق مع ادراكه .

وان لم يكن متفقا مع رغباته : فلا تعود مظاهر البؤس ، مهما كان نوعها أو مقدارها ، تثير فيه دهشة ، وان كانت تبعث فيه الالم ، اذ أنه قد أدرك أن الألم والشقاء هما ذاتهما اللذان يحققان الغاية الصحيحة للحياة ، ألا وهي انصراف الارادة عنها ...

والذي يحدث عادة هو أن القدر يمر على نحو حاسم بذهن الانسان وهو في عنفوان رغباته وأمانيه ، وعندئذ تتحول حياته تحولا أساسيا في اتجاه الألم ، وعن طريق هذا التحول يتحرر من الرغبة المنفعلة التي يكون كل وجود فردي مظهرا لها ، ويصل الى النقطة التي يغادر فيها الحياة ولم تبق لديه أية رغبة فيها وفي ملذاتها . بل ان الألم ، في الواقع ، هو عملية التطهير التي يصل الانسان بها وحدها الى القداسة ، أي يرجع بها عن ذلك الطريق الضال ، طريق ارادة الحياة » .

(المجلد الثاني الفصل ٤٩) .

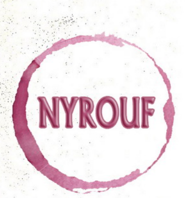
وفي هذا النص الأخير يربط شوبنهور بين مذهبه في الخلاص ، وبين أخلاق الزهد والعطف فيقول :

« اذا ما رفع « حجاب المايا » (١) ، وأعني به « مبدأ الفردية » principuum individuationis ، عن أعين

(١) اى القوة الكونية الخداعة التي تصور لنا الوهم حقيقة ...

المرء حتى لا يعود يميز على نحو أناني بين ذاته وأشخاص الآخرين ، وانما يهتم بآلام غيره مثلما يهتم بآلامه هو ، وبذلك لا يكون خيرا ومحسنا الى أقصى مدى فحسب ، بل يكون أيضا على استعداد للتضحية بفرديته اذا ما كان في ذلك انقاذ لعدة أفراد آخرين - فلابد أن شخصا كهذا .. سينظر الى آلام كل حي على أنها آلامه هو . وبذلك يأخذ على عاتقه عذاب العالم أجمع .. فكيف يتسنى له ، بمعرفته هذه للعالم ، أن يؤكد نفس هذه الحياة عن طريق أفعال ارادية دائمة ، وبذلك يزيد نفسه تقيدا بها ، ويغدو أشد تعلقا بأهدابها ؟ .. ان الارادة تنصرف عندئذ عن الحياة ، وتفر من تلك اللذات التي ترى فيها تأكيدا للحياة . فهنا يبلغ الانسان حالة العزوف الارادي ، والاستسلام ، والهدوء الكامل ، والقهر التام للارادة .. ولما لم يكن الانسان أصلا الا مظهرا للارادة ، فانه يكف عن توجيه ارادته الى أي شيء ، ويحذر من تعليق ارادته بأي شيء ، ويحاول أن ينمي في نفسه عدم الاكتراث التام بالأشياء جميعا » .

(الكتاب الرابع - القسم ٦٨) .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٧١ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3962 — 9